DOI: https://doi.org/10.52981/jfsl.v9i1.2245

النعمة في القرآن الكريم بين الشكر والكفر

د. أحمد محمد نور إبراهيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وبعد: هذا بحث في النعم التي وهبها الله تعالى لعباده، فمنهم من قابلها بالشكر والثناء فأدامها عليه، ومنهم من قابلها بالكفر والجحود، فأذهبها عنه، وأحال حياته إلى ضيق وضنك وشقاء.

والنعم قد يستخدمها المترفون في المفاسد، فتنقل المجتمع إلى دائرة الفسوق والفجور، فيوشك أن يعمهم الله بعذاب إن لم يأخذ الناس على أيدي الفاسدين.

في المبحث تبصير بنعم الله وصورها، وكيفية الشكر والكفر ومآل كل منهما، وفي المجتمع بعض الغافلين الذين ينساقون نحو الشر، بلا إرادة منهم، فلعل في هذا تبصيراً لهم حتى ينتبهوا ولا يقعوا في عقاب الله عز وجل.

قسمت هذا المبحث إلى مقدمة وأربعة مباحث، يتضمنها مطالب، وخاتمة كما يأتي:

المقدمة.

المبحث الأول: صيغ النعم الواردة في القرآن.

المبحث الثاني: صيغ شكر النعم.

المبحث الثالث: صيغ كفر النعم.

المبحث الرابع: من الشاكرين.

الخاتمة.

مباحث تمهيدية

المطلب الأول: النعمة لغة:

قال الجوهري[١]: (اليد، والصنيعة، والمنة، وما أنعم به عليك وكذلك النعمي، فإن فتحت النون مدت فقلت: النعماء. والنعيم مثله، وفلان واسع النعمة: واسع المال. وقولهم: إن فعلت هذا فبها ونعمت: يريدون نعمة الخصلة، والتاء ثابتة في الموقف.

ونعم وبئس: فعلان ماضيان لا ينصرفان تصرف سائر الأفعال لأنهما استعملا للحال بمعني الماضي، فنعم مدح وبئس ذم.)[٢]

وقال ابن سيدة:[٣] (النعيم والنعمي والنعمة كله: الخفض والدعة والمال، وقوله عز وجل: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ﴾، يعني في هذا الموضع: حجج الله الدالة على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ أي تسألون يوم القيامة عما استمتعتم به في الدنيا. وجمع النعمة: نعم وأنعم. قال النابغة:

فلـــن أذكـــر النعمـــان إلا بصـــالح فـــإن لـــه عنـــدي يَـــديَا وأنعمـــا[٤]

المطلب الثاني: النعمة اصطلاحاً:

قال الجرجاني:[٥] (هي ما يقصد به الإحسان والنفع لا لغرض ولا لعوض)[٦]

المبحث الأول: من صيغ النعمة في القرآن

النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده كما قال تعالى عنها: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ ذلك أن الكون كله مسخر للإنسان، شمسه وقمره ونجومه وغازاته وهواؤه، مسخرة للإنسان ينتفع بها في غذائه وعمله وسيره، وتسهيل حياته، أمطاراً وخصباً وحياةً كاملةً يعيشها الإنسان ينتفع بها روحياً وجسدياً وعقلياً، وينتفع بها كل حيوان وكل دابة على وجه الأرض. ونعمة الله المباشرة على الإنسان والعناية به، اتخذت أشكالاً وأوضاعاً مختلفة كثيرة، كلها تصب في سعادته وإسعاده وتتطلب منه الشكر على ذلك لتدوم النعمة. فمن صيغ تلك النعم:

المطلب الأول:

(١) (النعمة) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [الأحقاف:١٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود:١٠].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨].

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة:٢٧١].

(٢) (آتى) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ﴾ [التوبة:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة:٧٥].

وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ [مريم:١٢].

وقال تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:٨٩].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس:٨٨].

(٣) (وهب) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم:٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠].

وقال تعالى: ﴿قال رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص:٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾ [مريم:٥٣].

المطلب الثاني:

(٤) (مَنَّ) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١٧].

(٥) (خلق) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:٩٤].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ [الروم:٢١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم:٩].

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس:٤٢].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان:٢٨].

وقال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

وقال تعالى: ﴿قال أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦].

وقال تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:١].

(٦) (أنزل) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

المطلب الثالث:

(٧) (سَخَّر) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [ص:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤].

(٨) (أعطى) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى﴾ [النجم:٣٤].

وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ﴾ [طه:٥٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١].

وقال تعالى: ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥].

وقال تعالى: ﴿عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨].

وقال تعالى: ﴿جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً﴾ [النبأ:٣٦].

(٩) (أنشأ) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ [الملك:٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الواقعة:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام:١٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢].

وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة:٧٢].

(١٠) (ذرأ) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ [النحل:١٣].

وقال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

(١١) (جَعَل) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء﴾ [إبراهيم:٤٠].

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة:١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ [نوح:١٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾ [مريم:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس:٨٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾

[الملك:٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١].

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَـهٌ مَّعَ اللَّـهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً﴾ [مريم:٤٩].

المطلب الرابع:

(١٢) (أرسل) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [الصف:٩].

وقال تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ [المزمل:١٥].

وقال تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ [نوح:١١].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب:٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام:٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً﴾ [المرسلات:١].

(١٣) (بعث) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً﴾ [الجمعة:٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام:٦٠].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٦].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ [المجادلة:١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء:١٥].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

(١٤) (رزق) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل:٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٧].

وقال تعالى: ﴿أَنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّـهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّـهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت:١٧].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُور﴾ [الملك:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل:٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ﴾ [النحل:٧١].

(١٥) (عَلَّم) ومشتقاتها:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف:١٠١].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

المبحث الثاني: شكر النعم

علمنا القرآن الكريم أن نشكر النعمة فقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]. فالشكر اعتراف بالنعمة واعتراف بفضل وعطاء المنعم، وثناء وحمد على ما أعطى وفعل، وهو من المنعم عليه تبيين أنه أهل لأن يعطي وأهل لأن يمنح بهذا الاعتراف والشكر وبهذا تدوم النعمة وتمتد وتزيد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]. وقيل الزيادة من فضله ومن طاعته ومن ثوابه وكلها نعم وكلها خيرات وبركات.

للشكر لفظتان هما: الحمد، والشكر. وقيل: (الحمد قول باللسان، والشكر عمل بالأبدان)[٧]. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨].

والشكر ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]. ومن أساليب الشكر باللسان ما رواه رفاعة بن رافع ﷺ وقال: كنا نصلي وراء النبي **صلى الله عليه وسلم** فلما رفع من الركعة قال:(سمع الله لمن حمده) فقال رجل وراءه: ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه) فلما انصرف قال: (من المتكلم؟) قال: أنا. قال النبي **صلى الله عليه وسلم:** (رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً)[٨].

ومن صيغ الشكر:

ومن أساليب الشكر باللسان:

المطلب الأول: التحدث بها:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]. فالتحدث شكر لها وكتمانها من الكفر بها فالتحدث على سبيل ذكر فضل المنعم لا التباهي والتفاخر، فالتباهي مذموم وقد قال تعالى: في موضوع التصدق ﴿إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

فإن إبداء الصدقة للناس لحث الغير على التصدق فهو خير، وإن كان للتباهي والإيذاء فالخير في إخفائها حتى لا يجرح مشاعر الفقراء والمحتاجين.

وفي الحديث قال رسول **صلى الله عليه وسلم:** (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب)[٩].

قال النبي **صلى الله عليه وسلم** متحدثاً بنعمة الله عليه: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مُشَفّع)[١٠]. وقال **صلى الله عليه وسلم:** (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)[١١].

ويقول **صلى الله عليه وسلم:** (أُعطيت خمساً لم يعطِهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهورا، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُ حلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[١٢].

وقال **صلى الله عليه وسلم:** (أُعطيت الكوثر فإذا نهر يجري كذا على وجه الأرض حافتاه قباب اللؤلؤ ليس مشغوفاً فضربت بيدي على تربته فإذا مسكه ذفرةُ وإذا حصاه اللؤلؤ)[١٣]. (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)[١٤].

(إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أُمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أُهلكهم بسنة عامة، وأن لا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها – أو قال من بين أقطارها – حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضا)[١٥]. (أنا فرطكم على الحوض)[١٦].

وتحدثت السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين قائلة لأخواتها من أُمهات المؤمنين (زوجكن

أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات)[١٧].

وقالت عائشة رضي الله عنها: وقالت عائشة لأخواتها من نساء النبي (أنا التي جاء بي الملك إلى النبي **صلى الله عليه وسلم** في سرقة من حرير فيقول (هذه امرأتك)[١٨].

وقال **صلى الله عليه وسلم** لعائشة (أريتك في المنام مرتين أي إنك في سرقة من حرير، ويقال هذه امرأتك، فأكشف عنها فإذا هي أنت، فأقول إن يكن هذا من الله يمضه)[١٩].

قال النبي **صلى الله عليه وسلم** لبلال: (يا بلال، حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام، فإني سمعت دَف نعليك بين يدي في الجنة) قال: ما عملت عملاً أرجى عندي إلا أني لم أتطهر طهوراً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي[٢٠].

(إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها، وليحدث بها، وإذا غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره)[٢١].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب إلا وأنا أعلم أين أنزلت ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أُنزلت ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[٢٢].

المطلب الثاني: إظهارها:

في المأكل والمشرب والملبس والمركب، عن مالك بن نضلة الجشمي قال: دخلت على رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فرآني سيئ الهيئة فقال: (هل لك من شيْء؟) قال: نعم من كل آتاني الله. قال: (فإن كان لك مال فلير عليك)[٢٣].

روى البيهقي بسنده عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله **صلى الله عليه وسلم:**(إن الله جميل يحب الجمال ويحب أن يري أثر نعمته على عبده)[٢٤]. وقال رسول الله **صلى الله عليه وسلم:** (كل واشرب والبس وتصدق في غير سرف ولا مخيلة)[٢٥].

والمؤاخاة التي آخى بها رسول الله **صلى الله عليه وسلم** بين المهاجرين والأنصار. جمعت بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف. فقال سعد لعبد الرحمن: (أُطلق لك أحدى زوجتي، وأُقاسمك مالي، فأبى عبد الرحمن، وقال: دلوني على السوق، فما انقلب إلا ومعه فضل إقط وسمن، وتابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر ضفرة، فقال النبي **صلى الله عليه وسلم:** (مهيم !!) (كلمة تعجب)، فقال لعبد الرحمن: (تزوجت؟) قال: نعم. قال: (كم سقت لها؟) قال: نواة من ذهب)[٢٦].

هذا أثر نعمة ظهرت على عبد الرحمن وعرفها النبي **صلى الله عليه وسلم** فسره ما أنعم الله به عليه قالت عائشة رضي الله عنها: (دخل علي رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وهو مسرور فقال: (يا عائشة، ألم ترى أن مجززاً المدلجي، دخل فرأى أسامة وزيداً، وعليهما قطيفة، قد غطيا

رؤوسهما وبدت أقدامها فقال: إن هذه الأقدام بعضهما من بعض)[٢٧]. لقد كان أسامة أسوداً أفطس الأنف وأبوه أبيض فشك بعض الناس في ذلك وما قاله المدلجي .

لقد سر النبي نفي الشك عن أُسامة وزيد ، لما لزيد وأُسامة من مكانة عند رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فظهر عليه السرور.

المطلب الثالث: العطاء منها

الإنفاق من النعم دليل شكر عليها، ورجاء ثواب الله تعالى للمنفق تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:٣٩]. وميز الله تعالى بين المنفقين قبل وبعد الفتح، فقبل فتح مكة الإسلام ضعيف والمسلمون أعداد قليلة مطاردة محاربة، فالذي أنفق في ذلك الوقت على المسلمين المستضعفين أكلاً وشرباً،أو كساء أو فكاً من الرق من فعل ذلك فهو المنفق لوجه الله تعالى لا لرجاء ثواب من أحد إلا من الله ولا رجاء وشكر ولا ثناء، والذي أنفق بعد ذلك وبذل ماله في سبيل الله وقد قوي الإسلام بعد فتح مكة وأصبح دولة وقوة وضعف الكفر وانزوى فمنزلته أقل من السابق. لهذا يقول المولى عز وجل: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد:١٠].

ولقد أثنى الله تعالى على أبي بكر الصديق ﷺ الذي أنفق في تحرير إخوانه المسلمين الأرقاء الذين كان يعذبهم كفار مكة فأعتقهم لوجه الله تعالى فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۞ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۞ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۞ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۞ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ۞ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ۞ لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى ۞ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۞ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۞ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۞ إِلا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:٥-٢١].

وعشق أبو بكر الإنفاق في سبيل الله، فبعد تحرير الأرقاء دفع في سبيل الله، حتى جاء بكل ماله دعماً للجهاد وإعلاء لكلمة الله في غزوة تبوك حتى سأله النبي **صلى الله عليه وسلم** فقال: (ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟) فقال: (أبقيت لهم الله ورسوله). فنعم ما فعل ونعم ما أبقى لأهله – الله ورسوله – أن الإنفاق نعمة، من ذاقها ووجد حلاوتها لا يتخلى عنها ولا يجد الِلذة إلا فيها

تـــراه إذا مـــا جئتـــه متســـائلاً كأنـــك تعطيـــه الـــذي أنـــت نائلـــه

ولـــو لـــم يكـــن فـــي كفـــه غيـــر روحـــه لجـــاد بهـــا فليتـــق الله ســـائله

وكذلك أبو الدحداح الأنصاري ﷺ عندما سمع قول الله تعالى المنزل لتوه على رسول الله

صلى الله عليه وسلم: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]. قال: (أرني يدك يا رسول الله. قال فناوله رسول الله **صلى الله عليه وسلم** يده. وقال: إني قد أقرضت ربي حائطي. قال: وله حائط فيه ستمئة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها. وقال: فجاء أبو الدحداح فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: أخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل)[٢٨].

والنبي **صلى الله عليه وسلم** دخل على بلال وعنده صبرة من تمر فقال: (ما هذا يا بلال؟) قال: شيء ادخرته لغدٍ. قال: (أما تخشى أن ترى له غداً بخاراً في نار جهنم يوم القيامة، أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً)[٢٩].

وأما عثمان بن عفان ﷺ فقد جهز جيش العسرة بكامله لغزوة تبوك عام (٩) من الهجرة لغزو الروم حتى قال النبي **صلى الله عليه وسلم** معلقاً على إنفاقه: (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم)[٣٠].

دعا رسول الله **صلى الله عليه وسلم** لعبد الله بن عباس فقال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[٣١]. ففتح الله تعالى عليه بدعوة النبي **صلى الله عليه وسلم**، فكان ينفق من علمه الكثير فكأن له يوم للفقه، ويوم للتفسير، ويوم للغزوات، ويوم للشعر.. كل ذلك أنفاق من العلم وقد انتشر تلاميذه في كل من مكة والمدينة والبصرة والكوفة، ينشرون ما تعلموه منه.

ولقد نشر المسلمون على مختلف العصور والأماكن هذا الدين وبلغوه للناس امتثالاً لقوله **صلى الله عليه وسلم:** (بلغوا عني ولو آية)[٣٢]. وخوفاً مما وعد الله تعالى كاتمي العلم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ.. إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

المطلب الرابع: الفرح بها

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] (بِفَضْلِ اللّهِ) الإيمان (رَحْمَتِهِ) القرآن [٣٣] .

والفرح بها يعني السرور والانشراح لمجيئها، وفرح البطر ممنوع، فالله تعالى يقول: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

عن آنس بن مالك عن أبي طلحة قال: أتيت رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وهو يتهلل وجهه مستبشراً، فقلت أي رسول الله: إني رأيتك على حال ما رأيتك على مثلها. قال: (وما يمنعني أتاني جبريل آنفاً فقال: بشر أمتك أنه من صلى عليك صلاةً كتب له بها عشر حسنات وكفر عنه بها عشر سيئات، ورفع له بها عشر درجات ورد الله عليه مثل قوله وعرضت عليه يوم القيامة)[٣٤].

ودخل النبي **صلى الله عليه وسلم** يوماً على عائشة مسروراً فقال: (يا عائشة ألم تري أن مجززاً المدلجي دخل فرأى أسامة وزيداً وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامها فقال إن هذه الأقدام بعضها من بعض)[٣٥]. هذا هو الفرح الذي يبدو على الوجه إشراقاً وألقاً يرى ويعرف على صاحبه، كما بدأ على وجه النبي **صلى الله عليه وسلم** في هذين الحديثين، وهو يرى تبرئة حبيبيه أسامة وزيد من السوء.

وتخلف من غزوة تبوك ثلاثة من المسلمين الصادقين هم: هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك. وعندما عاد النبي **صلى الله عليه وسلم** والمسلمون منتصرون من تبوك وبدأ بالمسجد وجاء الذين تخلفوا من الغزوة معتذرين بأنواع من الأعذار المختلفة، إلا هؤلاء الثلاثة لم يكذبوا واعترفوا أنهم كانوا أكثر استعداداً وقدرة ولكنهم لم يشاركوا، فأمر النبي **صلى الله عليه وسلم** باعتزالهم وعدم الكلام معهم ثم منعوا من الزوجات خمسين ليلة ثم نزلت توبتهم من الله وقال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]. ولقد فرح المسلمون بتوبة الثلاثة فرحاً لا يقاس مداه فبُشروا وأبشروا وأجازوا وتصدقوا وكان ذلك أسعد يوم في حياتهم، لقد نزع كعب بن مالك ثوبه ولبس غيره فدفعه لمن بشره.. وتلك غاية السرور)[٣٦].

والحرب التي وقعت بين الفرس والروم والإسلام يومئذ في بدايته وهم فتألم المسلمون من انتصار الفرس المجوس على الروم النصارى. فأنزل الله تعالى في سورة الروم وبشر المسلمين بحرب وشيكة بين الطرفين مرة أخرى ينتصر فيها الروم على الفرس ويبين أن المسلمين يومئذ سيفرحون بهذا النصر قال تعالى: ﴿الم ۞ غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۞ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۞ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم:١-٥]. ووقعت الحرب وانتصر الروم وفرح المسلمون وكانت آية من آيات الله العظام.

والقرآن نعمة ومن أوتي القرآن ومكنه الله تعالى من حفظه والعمل به فهو العمل الذي يستحق أن يفرح له والإنسان ويوليه عنايته قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]. إن الذي يستحق أن يفرح الناس له هو حفظ القرآن والعمل به، فأن من رزقه الله القرآن وعمل به فان ثوابه وأجره لا حصر له ولا عد.. فيوم القيامة يقال لحافظ القرآن اقرأ وارق فانه منزلتك عند آخر آية تتلوها.

وقدم النبي **صلى الله عليه وسلم** حفظة القرآن من الشهداء على بقية إخوانهم لمكانتهم بحفظهم القرآن، ويلبس والدا حافظ القرآن يوم القيامة تاج الوقار كما يبين النبي **صلى الله عليه وسلم**.

ولقد كتب الشافعي ﷺ رسالة للإمام أحمد بن حنبل يخبره فيها أنه رأى النبي **صلى الله عليه وسلم** في رؤيا، وقال له بشر أحمد بن حنبل ببلاء يقع عليه سيرفع الله به شأنه إلى يوم القيامة سلمها لأحد تلاميذه فأوصلها أليه في بغداد. فلما قرأها أحمد بن حنبل بكى فرحاً، وخلع جلبابه وأعطاه لمن جاء يحمل رسالة الشافعي، ولما وصل الرسول _ راجعاً _ إلى مصر وأخبر الشافعي بما فعل مع أحمد بن حنبل وأنه أعطاه ثوبه، قال الشافعي للرسول أغسله وأعطني ماء الغسيل فجعله في قارورة جعل يتعطر بها تبركاً بعرق الأمام أحمد (٣٧).

المطلب الخامس: سجود الشكر والتسبيح

من أجل شكر النعم السجود لله تعالى شكراً واعترافاً بها، وهذا ما فعله رسول الله **صلى الله عليه وسلم** وأصبح سنة للمسلمين.

روى البراء ﷺ قال: بعث رسول الله **صلى الله عليه وسلم** خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم بعث علياً بن أبي طالب، فلما دنا من القوم خرجوا إلينا، فصلى بنا علي وصفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا فقرأ عليهم كتاب رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فأسلمت همدان جميعاً فكتب علي ﷺ إلى رسول الله **صلى الله عليه وسلم** بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله **صلى الله عليه وسلم** الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: (السلام على همدان، السلام على همدان، السلام على همدان)(٣٨).

وفي العام الثامن من الهجرة وفي الثاني والعشرين من رمضان فتح رسول الله **صلى الله عليه وسلم** مكة المكرمة فدخل دار أم هاني بنت أبي طالب فصلى وصلى ثمان ركعات في بيتها، وكان يومئذ ضحى، فظنها من ظنها صلاة ضحى، وإنما هذه صلاة الفتح)(٣٩).

وهكذا سن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** لهذه الأمة عند النعم أن تسجد لله تعالى سجود شكر إما سجدة واحدة تعظيماً لله تعالى، وإما هي صلاة ركعات كما جاء في الفقرتين السابقتين. ولقد فعل سعد بن أبي وقاص ذلك حين فتح المدائن فصلى ثمان ركعات)(٤٠).

والقرآن جعل الشكر على النعم عبادة، إما باللسان وإما بالأبدان كما سجد الرسول وصلى، وباللسان يقول تعالى لرسوله في حجة الوداع حين انزل عليه سورة النصر يقول تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ [النصر:١-٣]. والقرآن يعطي النبي **صلى الله عليه وسلم** ثلاث إشارات إن وقعت فعليه أن يستقبل الآخرة مسبحاً بحمد ربه يقول:

(١) إذا جاء نصر الله: والنصر جاء فقد قاتل الكفار المسلمين في معارك متعددة خرج فيها الإسلام منتصراً حتى إذا جاءت غزوة تبوك التي غزا فيها المسلمون الروم هرب الروم إلى الشام ولم تقع معركة وانتهت كل الفئات التي كانت تحارب ولم يبق أحد يرفع السيف في وجه الإسلام وكان النصر.

(٢) الفتح: وتم فتح مكة وخضعت قريش للإسلام وأصبح المسلمون هم أصحاب القيادة والأمر فيها.

(٣) ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا: وكانت نهاية العام التاسع من الهجرة والعاشر بعده عام الوفود، الذي جاءت فيه كثير من قبائل العرب من أنحاء الجزيرة العربية المختلفة جاءت راغبة في الإسلام مبايعة الرسول **صلى الله عليه وسلم** عليه.

فتمت هذه الإشارات الثلاث جاء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجاً. هذه الإشارات إن حدثت قال الله تعالى لنبيه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، فسبح ربك ونزه الله من الشريك والنديد والمثيل سبحه حامداً له وشاكراً أن وفقك في إنجاز ما كلفك من إقامة هذا الدين فتم هذا وعليك بهذا الإنجاز أن تتجه للآخرة فقد أديت ما عليك وانقضى عمرك وسنمضي إلى الرفيق الأعلى

ولما نزلت هذه السورة قال رسول الله **صلى الله عليه وسلم** (نعيت لي نفسي) وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله **صلى الله عليه وسلم** يكثر في آخر أمره من قول: (سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه)[٤١].

روى أحمد عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** خرج فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت أن الله توفاه، فجئت أنظر فرفع رأسه فقال: (مالك يا عبد الرحمن؟) فذكرت ذلك له فقال: (إن جبريل عليه السلام قال لي، ألا أبشرك؟ إن الله عز وجل يقول لك، من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكراً)[٤٢].

وروى البخاري عن كعب بن مالك سجد لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه.

وذكر ابن حزم في المحلى أن علياً سجد حين وجد ذا الثدية في قتلى الخوارج[٤٣].

وذكر ابن حزم في المحلى أن أبا بكر سجد حين قتل مسيلمة[٤٤].

المبحث الثالث: كفر النعمة

المطلب الأول: الكفر بها

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۞ وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٢-١١٣].

فالله تعالى يحدثنا عن مكة المكرمة التي اختارها مكاناً لبيته وقبلة للمسلمين، كفارها عندما جاءهم رسول الله **صلى الله عليه وسلم** بالإسلام، رفضوه، وأبوا أن يتركوا عبادة الأصنام التي ملؤوا بها جوف الكعبة وما حولها، وملؤوا منها بيوتهم وشوارعهم، وهم يرون فضل الله عليهم، يجلب أنواع الثمار والمأكولات إليهم من أنحاء الدنيا، تكريماً لبيته واستجابة لدعوة نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]. فهم تنقل إليهم خيرات الدنيا وتؤخذ منهم إلى

من حولهم من أهل الجوار، وهم آمنون داخل الحرم وخارجه، فالقوافل التي تمر ذاهبة إلى الشام أو عائدة منه أو ذاهبة إلى اليمن أو عائدة منه لا تسلم من قطاع الطرق إلا قوافل قريش لأنهم أهل الحرم، فجاءهم الأمن بهذا البيت .

لكنهم لم يستجيبوا لدعوة رسول الله **صلى الله عليه وسلم**، بل ذهبوا إلى منع من دخل معه في هذا الدين ان يعيش آمناً بل عذبوهم وآذوهم حتى مات – تحت وطأة العذاب – بعض منهم فهاجروا خوفاً من العذاب. ولاحقوهم بعد الهجرة ليردوهم الى مكة وليعذبوهم. وحاصروا النبي **صلى الله عليه وسلم**وآله من بني هاشم في الشعب ومنعوهم الطعام وقطعوا العلاقات والصلات معهم فلا زواج ولا بيع ولا حديث.. وكتبوا صحيفة بذلك تحالفوا عليها استمرت لثلاث سنوات.

هنالك دعا عليهم رسول الله **صلى الله عليه وسلم** فقال: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف)[٤٥]، فذاقوا مرارة الجوع، ومرارة الأمن بغضب الله عليهم حتى كسر الله شوكتهم، وكفى الله رسوله والمؤمنين شرهم كما قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥]. لقد صبر النبي **صلى الله عليه وسلم** وأصحابه على أذى الكفار حتى نصرهم الله تعالى وخلص مكة من شرار أهلها.

لقد عاثوا في الأرض الفساد بتعديهم على حرمة الآخرين وحالوا بين الناس وما يعبدون وأرادوا أن يرغموهم على عبادة الأصنام وهم الذين عناهم القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]. إن النعمة التي أرادها الله للعالمين هي نعمة الدين والاستسلام لله تعالى ليدخلوا جنته وأراد أن الكفار يحولوا بين الناس والنعمة، فأهلكهم الله تعالى وفتح الطريق للدعوة لتنساب وتؤتي أُكلها.

ويسوق الله تعالى قصة من أنعم عليه بحديقتين مثمرتين ووفر لهما الماء والخير، فلم يحمد الله على ذلك وإنما كفر فقال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً ۞ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً ۞ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ۞ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً ۞ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً﴾ [الكهف:٣٢-٣٦]. غرور وكفر متلاحق أصابه من هذه النعمة، تباهى بماله وولده، ثم ظنه أن حديقته لن تبيد وتهلك بما فيها من أسباب البقاء، الري المتوفر والخضرة الدائمة – وشك في قيام الساعة ولئن رددت إلى ربي – لأجدن خيراً منها منقلبا. ورد عليه صاحبه المؤمن: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف:٣٧].

ذكره ببداية نشأته، تراب ثم نطفة ثم رجل أطواراً متباعدة جمعها الله تعالى في إنسان دليل القدرة الإلهية.. تراب، نطفة، علقة، ويقول المؤمن: ﴿لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدا﴾ [الكهف:٣٨]. فرق بين كافر ومؤمن يعرف ربه وحقه. وأهلك الله تعالى جنتي الرجل. وجعله

يتحسر ندماً على ما فرط في لسانه وأساء وقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ [الكهف:٤٢]. لقد أذهب النعمة بكفره وأهلك ماله كله [٤٦].

وآخرون يذكرون الله ويذكرهم فيقول: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]. خلصهم الله من الشدة فَبَدل الشكر كفروا وأشركوا.

المطلب الثاني: الجحود

والعطاء مما أنعم الله نعمة من أجل النعم، فمن ذاقها لم يتركها فقد أحب الإحسان ناس عاشوا له وبذلوا له بذلاً سجل اسمهم في سجل التاريخ وألسنة الناس والقرآن الكريم ينقلنا إلى عهد النبي موسى عليه السلام، وقد أعطى الله تعالى قارون من الكنوز ما قال تعالى فيه:﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص:٧٦]. وهذا مال لا يحصى عدداً وقدم له الناس من النصح ما يشبه الدر حسناً وتوجيهاً قالوا:

لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين

وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة

ولا تنسى نصيبك من الدنيا

وأحسن كما أحسن الله أليك

﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]. فالفرح المبغوض فرح التباهي.. فنهوا عنه لأن الله يبغض أصحاب هذا النوع من الفرح.

وقالوا: وجه عطاءك وبذلك وإنفاقك فيما ينفعك يوم القيامة تجده أمامك ويُثقل موازين حسناتك.. وذلك خير مكان لحفظ المال والانتفاع به.

ولا تنس ولا تهمل أن تتمتع بأموالك في هذه الحياة الدنيا فكل منها من طيب الطعام واشرب من طيب الشراب والبس منها أحسن الثياب وتزوج منها وتمتع المتعة الطيبة، وأحسن إلى الناس بالعطاء والبذل.

ولا تفسد بهذا المال وتبغ المتع المحرمة من زنا وقمار وخمر وميسر وغيرها من مفاسد الحياة.. فإن دخلت في شيء من هذا وقعت في غضب الله لأن الله لا يحب المفسدين.

وهذا النصح الرفيع الغالي الذي شمل راحة الدنيا وسعادة الآخرة لم يعجب قارون فرد قائلاً جاحداً لنعمة الله عليه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص:٨٧]. فلم يقبل أن يقال: إن الله أعطاه أو منحه.. فقال إنما كسبته بعملي في التجارة وعلمي كيف أقلب المال ليأتي بالمال أما أن الله أعطانيه فهو ينكره.

والله تعالى بعد هذا القول يذكره وأمثاله فقال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص:٧٨].

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص:٧٩]. فخرج يتباهى في زينة لباسه وزينة مركبه، قال أهل العقول الخفيفة الذين تستهويهم هذه المظاهر ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص:٧٩]. أما أهل العقول النيرة الذين ينظرون إلى الأفق البعيد والحياة الآخرة قالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص:٨٠].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ [القصص:٨١]. غضباً من الله تعالى عليه.. فغاب عن الدنيا ومحى من وجه الأرض هو وما يملك.. وأصبح عظة وعبرة لمن نسي فضل الله وعطاء الله ونسب الفضل إليه، وذهب غير مأسوف عليه، وأدرك من تمنوا حاله بالأمس أن رحمة الله تعالى أدركتهم فلم يلقوا مصيره ومآله. وتلك نعمة

المطلب الثالث: الإعراض والشرك:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ [الإسراء:٨٣]. أعرض عن الشيء انصرف عنه، والأعراض جحود وكفر بالنعمة، فالذي تضرع إلى الله تعالى في شدته، وفرج الله كربته وشدته، وانعم عليه واجب عليه أن يشكر الله تعالى على ما أنعم عليه من إزالة ضره، وكشف همومه وأحزانه لكنه لم يشكر ولم يلتفت أصلاً إلى الوراء ليذكر كيف كان وكيف أصبح، لهذا استوجب هذا التصرف العقاب من الله تعالى.

والله تعالى حذر الخلق من الإعراض عن ما يأتيهم به الرسل. فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

وفرعون أرسل إليه موسى عليه السلام، فلم يؤمن لأنه ادعى الألوهية وأمر الناس بعبادته، وجاءته آية لترده إلى الصواب فأبى، وراوغ فكلما جاءته آية عاهد موسى عليه السلام لئن كشف الله عنه العذاب ليؤمن ويرسل مع موسى بني إسرائيل ويوعد ويخلف ويعرض فأهلكه الله بالغرق ومن معه كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ ۞ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۞ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۞ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢-١٣٦].

وفي كثير من الناس طبائع لا تتغير. كفر النعمة ونسيان المنعم يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ

الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر:٨]. ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢]. صور تملأ النفس أسىً وحزناً، أن ينسى العبد من فرج كربه وأزال ضيقه وأنعم عليه، لقد جاء العقاب على هذا الأعراض مريراً مؤلماً. لقد اجتث النعمة وصاحبها من القواعد وبقيت العظة والعبرة تذكر الناس حتى لا ينسوا فضل الله وعطاءه، وإلا وقعوا فيما وقع فيه أسلافهم.

ويحدثنا الله تعالى عن أهل سبأ فيقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ.. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٥-١٦]. وأشقى الأمم بالإعراض أمة سبأ التي أنعم الله تعالى عليها بواسع النعم، فالبلد كله بساتين وحدائق والماء متوفر في سد مأرب، والصحة والعافية تملأ الأبدان والعيش موفور، وطلب الله تعالى من هؤلاء الشكر على هذه النعمة فأعرضوا وأبوا أن يشكروا الله، فبدل الله حالهم إلى أسوأ حال، لقد انهار السد بعد أن سلط الله عليه فاراً فأحدث ثقباً دمر السد ودمر البلد كلها وأغرق بساتينها، وبعد الجفاف أنبت الله في الأرض ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ:١٦].

ذهبت النعمة وقام مقامها أشجار مريرة الطعم وأشجار الأثل وهو الطرفاء الذي لا يصلح إلا وقوداً للنار ومن السدر أعطاهم القليل. ومنح الله أهل سبأ أذا سافروا إلى مكة أن يسافروا من بلد إلى بلد حتى يبلغوا الأرض المقدسة لا يحتاجون للزاد وهم آمنون في الطريق فطلبوا من ربهم زوال النعمة فقالوا: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ:١٩]. ففقدوا هذه النعمة وباعد الله أسفارهم وأصبحوا يجدون فيها المشقة بدل الراحة والخوف بعد الأمن.

ومزق الله أهل سبأ أي ممزق حتى أصبحوا مضرب المثل في التمزيق قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩]. هذه صور من صور الأعراض والجحود، وقع فيها بعض الناس وذاقوا مرارة العقاب في الدنيا، وينتظرهم العقاب في الآخرة.

المطلب الرابع: الفرح (البطر):

قال تعالى: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]. والفرح المعني هو فرح التعالي والكبر، والكلمة قيلت لقارون حين خرج على القوم في زينته متعالياً متبختراً فخوراً بنعمته فخسف الله به الأرض وهو فرح ليس له ما يبرره، فان فرح بالمال والدنيا فإنما هي من الله تعالى

وليست من العبد، ولا من جهده، وهي وصاحبها إلى زوال، فما الفرح أذن؟ والفرح بالدنيا لا يغر ويخدع إلا أصحاب العقول الناقصة إما أهل الإيمان فيعلمون ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم:٣٧]. وقد تزول النعمة. والفرح قد يستدرج الله تعالى به العبد، وهي الخطوة التي تسبق الهلاك. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥]. والفرحين بما أوتوا من الدنيا ويخرجون بها على الناس في خيلاء، أولئك هم المبغوضون لله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ وبعض اليهود سألهم رسول الله **صلى الله عليه وسلم** عن مسألة فكتموه الخير واخبروه بغير ما سأل وفرحوا بهذا التصرف وحسبوه يفوت عليه، والله يحصي ما يفعلون فلهذا خاطب الله تعالى نبيه فقال: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٨]. فلفعله هذا عقوبة، ولكفرهم هذا عذاب.

والمنافقون في غزوة تبوك تخلفوا عن الغزوة، وخرج المجاهدون وعادوا، وأما المنافقون فلما رجع النبي **صلى الله عليه وسلم** والمؤمنون جاءوا يختلقون الأعذار تبريراً لتخلفهم، والله يكشف مكنون صدورهم فيقول: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة:٨١]. والله أرانا أن الدنيا إلى زوال والنافع فيها العمل الصالح فلنعمرها به قال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠]. فلهذا يدعونا أن نتنافس في الصالحات لنعمر حياتنا بها ونثقل بها موازيننا يوم نقدم عليه قال تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

والله يرينا أن ما يجري للعباد في هذه الحياة الدنيا إنما سبق كتابه في الأزل، فهو قديم قبل أن تنفخ الروح في الإنسان فعليه أن يستقبل الفرح والسرور برضى بلا أسى على ما فاتنا ولا فرح بما آتانا قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣]. هذه وصية الله تعالى لهذه الأمة فمن عمل بها سعد ومن تركها فلابد من تعب ولابد من شقاء.

المطلب الخامس: البخل بها:

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۞ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة:٧٥-٧٧]. هذه جريمة وعقابها معاً. تحملها هذه الآيات، معاهدة بين رجل محتاج راغب في الدنيا، لا يوقف رغبته شيء ولا يجد منها نصح، جلس إلى رسول الله **صلى الله عليه وسلم:** يقول: سل الله أن يرزقني مالاً، والنبي **صلى الله عليه وسلم** يحاول أن يرده عن الطلب. الذي يقوده إلى الهلاك ويقول: (قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه)(٤٧).

ويأبى إلا أن يدعو له رسول الله **صلى الله عليه وسلم،** فدعا له، وبدأ الغني أنعاماً تنمو وتكثر فانقطع عن الصلوات الخمس والجمعة والناس وبعد كثيراً عن المدينة وفرضت الزكاة، ودفع الناس زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم، وجاءه رسل رسول الله **صلى الله عليه وسلم** ليأخذوا منه صدقة أمواله من الأنعام فأبى وقال: هذه جزية، هذه أخت الجزية. ويرجع الرسل إلى المدينة ولم يحصلوا على شيءٍ. وتنزل فيه الآيات السابقة. ويصله الخبر، ويأتي إلى المدينة ليعرض صدقته ويأبى رسول الله **صلى الله عليه وسلم** أن يقبلها منه بأمر الله لنقضه العهد وبخله بما آتاه الله من فضله، فضرب الله على قلبه النفاق إلى أن يلقاه يوم القيامة، وحاول أن يدفعها لأبي بكر وعمر وعثمان فلم يقبلوها منه ومات كافراً. وكثيرون من الذين كانوا فقراء فاغتنوا ونسوا بعد الغنى المعطي والمانع. وجرهم ما آتاهم الله من الخير إلى الفساد والكفر بدل الشكر والحمد. وهؤلاء يبغضهم الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ۞ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً ۞ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قَرِيناً ﴾ [النساء:٣٦-٣٨]. الله تعالى يبغض كاتمي النعمة ولا ينشرون فضل الله عليهم ويبدون في صورة لا تليق وما وهبهم الله من نعمة، فيبدون في ضعف ومسكنة واحتياج.وهم بخلاء حتى على أنفسهم أن يمتعوها بنعم الله عليهم، ويأمرون الآخرين من أصحاب الأموال والفضل من الأنفاق والصرف فهؤلاء لهم عذاب مهين من الله تعالى. وأما أذا ما أنفقوا في مواطن يشاد فيها بإنفاقهم ويذكر فيها اسمهم باعتبارهم من رجال البر والإحسان، يحبون أن يعلن إنفاقهم حتى يشتهروا فهم يفعلون ذلك رئاء وسمعة. وهو أنفاق لم يقصد به وجه الله، ولا أن يثقل الله به موازين حسناتهم يوم القيامة، فأيمانهم بالآخرة وذكرهم لها قليل، وهذا كله كما قال الله تعالى من فعل الشيطان فقد أصبح لهؤلاء قرين ملازم يمنعهم من الإنفاق في سبيل الله ويدعهم ينفقونها بسخاء في مواطن الفساد والفجور(٤٨).

لقد انتدب الله عباده للإنفاق في الجهاد، إعلاءً لكلمة الحق، وحرباً لأعداء الله الذين يحولون

بين الناس والإسلام والجهاد يحتاج للمال والله يأمر عباده بالأنفاق فيقول: ﴿هَاأَنتُمْ هَؤُلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

واستجاب أهل الإيمان لنداء الله ودفعوا للجهاد بما يملكون وبسخاء، ووقف المنافقون يشاهدون المسلمين يبذلون الأموال ويضعونها أمام رسول الله **صلى الله عليه وسلم**، ووقفوا يعلقون على هذا الفعل لم يعجبهم من دفع كثيراً ولا من دفع قليلاً فلهم لكلٍ مقال وتعليق والله تعالى يرصد حركتهم ويرسم صورتهم ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٧٩]. فالذي دفع كثيراً من المال والأشياء لمزوه، وقالوا ما دفع إلا رياء، وما دفع إلا ليقال إنه غني أو إنه سخي.

والذي جاء بما يستطيع، وقدر ما يملك سخروا منه وقالوا: ما ينفع ما جاء به هذا؟ إنه قليل تافه، وعابوه، والله تعالى يسخر منهم إزاء ما سخروا من المسلمين ويدخلهم العذاب الأليم. فالنداء صدر للأنفاق لتعلو كلمة الله فمن استجاب لم يتركوه وهم لا ينفقون ويبخلون ويدعون أنهم مسلمون. وهكذا ويكشف الله مكنون الصدر ويفضح أهلها.. وذلك أن الأيمان يدفع صاحبه للبذل. والكفر يجعل صاحبه كزاً، والبخل يدمر النعمة ويذهبها، والقرآن يسوق قصة أصحاب الجنة عظة وعبرة، ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۞ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ ۞ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۞ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۞ أَن لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۞ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۞ عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۞ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:١٧-٣٣]. لقد أرادوا حرمان المساكين من حق الله عندهم فبالبخل ذهبت النعمة وبقيت الحسرة تملأ قلوبهم.

وإذا كان القرآن قد ضرب المثل يسوقه لأهل مكة عظةً وعبرةً، فما انتفعوا بالمثل والقرآن ينقلنا لهم متباهين في الدنيا متخاصمين في الآخرة. يلقي كل منهم اللوم على الآخر لأنه كان سبباً في ما أصابهم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۞ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً﴾ [سبأ:٣١-٣٣] والمترفون أصحاب الأموال هم المعوقون في المجتمع والمانعون للدعوة أن تنطلق بما عندهم من مال وجاه وكلمة. ولوضعهم المالي الذي رفعهم في الدنيا وجعلهم زعماء يأمرون وينهون ويقولون

فتسمع كلمتهم ويطاعون قالوا: لن نعذب بالعذاب الذي أنذرهم به النبي **صلى الله عليه وسلم** لأن المال في أيديهم يحسبون أنهم يفتدون به من العذاب أو يرشون من استطاعوا بالمال وتذهب العقوبة. ولهذا أعلنوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً.

لقد غرس الشيطان في بعض النفوس سلوكه ومنهجه، أليس هو القائل لربه **عز وجل** حين أمره أن يسجد لآدم فأبى وقال: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف:١٢].

المطلب السادس: التحدي بها:

قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود:٣٢-٣٣]، في بداية البشرية ومع الانحراف عن الصراط المستقيم أرسل الله تعالى نوحاً لينذر قومه بالعذاب إن هم استمروا في عبادة الأصنام، والقوم تمادوا فيما هم فيه مستهينين بالإنذار مصرين على عبادة الأصنام، ولطول مكوثه فيهم طالبوه بإنزال العذاب بهم، فهمم لن يؤمنوا.

وجاء العذاب فأخذهم وما بقي أحد من في السفينة حياً، فعمروا الأرض بعد ذلك وجاءت بعد قوم نوح أمم وبقيت قصة قوم نوح فيهم حية تتناقلها الأجيال عسى أن تكون عظة لمن بعدهم، لكن الذكرى لم تنفع واستمر العناء والتجاهل والتحدي سمة لكل أمة. تتحدى رسولها. وجاء قوم لوط بأسوأ معصية بإتيان الرجال شهوة من دون النساء والمجاهرة بذلك، وبعث الله لوطاً لينذرهم بترك تلك الفاحشة فأبوا وقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩]. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]. ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧].

هؤلاء هم قوم لوط، استهانوا بالعذاب فطلبوه، واستغربوا أن ينهاهم لوط عن إتيان الفاحشة، ولا يتعامل معها هو ومن معه، لهذا طالبوا بإخراجه من قريتهم لأنهم طاهرون، لا يرغبون في هذه الفاحشة ولا يأتونها، فلذا وجب إخراجهم من المدينة. ثم هددوا لوطاً بإخراجه بالقوة إن لم ينههم عن إتيان الفاحشة، تحدى حتى بعث الله تعالى جبريل عليه السلام، إلى القرية فرفعها عالياً، ثم كافأهم ورجمهم وهم ساقطون بالحجارة ثم أصبحوا تحت الأرض في أسوأ عذاب من نوعه.

وليت الذي حدث نفع من بعدهم فهاهو النضر بن الحارث من زعماء مكة وكبار كفارها، يأبى الدخول في الإسلام ويقف سداً منيعاً من الدخول فيه، ويرفع أكفه إلى الله سائلاً قائلاً: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال:٣٢].

وردّ الله تعالى على ما طلبه النضر بن الحارث من عذاب، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٣٣-٣٤].

وجود النبي **صلى الله عليه وسلم** بينهم في مكة رفع عنهم العذاب إكراماً للنبي **صلى الله**

عليه وسلم صاحب المقام العالي والمنزلة الرفيعة عند الله تعالى لهذا كان وجوده سبباً في كف العذاب، وسبب آخر قوم مؤمنون في مكة يستغفرون الله وهم لا يظهرون الإسلام خوفاً من بطش قريش لهذا كف الله عنهم العذاب الجماعي ([٤٩])، ولكنه تناولهم بالعذاب واحداً واحداً، لقد أنزل الله تعالى على نبيه قوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٤-٩٥] أمره بالجهر بالدعوة ولا يلتفت للمشركين وأقوالهم .

لقد كفاه إياهم فأصابهم بأوجاعٍ وأمراضٍ وعذابٍ استأصلهم جميعاً، وبعضهم هلك في غزوة بدر وأبو لهب هلك بمرض (العدسة) بعد غزوة بدر التي لم يخرج عليها ومات بهذا المرض بعدها. فهلكوا فالتحدي ظل سمة يواجه بها الكفار الأنبياء والمرسلين ويتحدون العذاب الذي ينذرون به ويطلبونه، ولم يتعظوا بما وقع على من سبقهم جهلاً وغفلة ([٥٠]).

لقد جاءتهم نعمة الله تسعى إليهم لتخرجهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الهداية والرحمة الذي يقضي بهم إلى الجنة، فأبوا متحدِّين الرسل والعذاب والإنذار وهكذا.

ما صد عن فعل الأذى قول مرسل ولا راع مفتون الحياة نذير

حتى هلكوا.

المطلب السابع: التعدي على المرسلين بسببها:

قال تعالى: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ ۞ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٣-٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۞ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٨-٦٩].

في سبيل إخراج الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان والإسلام لقي الأنبياء والمرسلون أشد أنواع الحرب والتضييق والتعذيب، بل بعضهم قتل كيحيى عليه السلام وإبراهيم عليه السلام ألقي في النار.

وهدد فرعون بقتل موسى عليه السلام وقتل فرعون أبناء بني إسرائيل انتقاماً واستحيا النساء سنوات

طويلة، وهددوا بقية المرسلين وأسمعوهم جارح الألفاظ والأقوال أما رسولنا **صلى الله عليه وسلم** فكان نصيبه من التعذيب كثيراً فشتموه، وألقوا به ﷺ وهو يصلي وقتلوا أصحابه وعذبوهم واضطروهم إلى الهجرة، ولاحقوهم بعد الهجرة ومحاولات اغتيال النبي **صلى الله عليه وسلم** تعددت لكن الله نجاه من كل تلك المحاولات فأولها في مكة إجماع كفار قريش على قتله ومحاولة بني النضير بعد الهجرة الذراع المسمومة التي خرجتها يهودية له في خيبر وغيرها، كل ذلك في سبيل أن يخرجوا من ظلمة الشرك والكفر، إلى نور الإيمان والهداية. والأنبياء أصحاب غاية لابد أن يصلوا إليها فلن يثنهم عن الغاية المحاولات الكثيرة التي تقع، أو التهديد بالقتل أو التعذيب، والنبي **صلى الله عليه وسلم** كان واضحاً إزاء محاولات قريش الكثيرة ترغيباً وترهيباً، يترك ما هو عليه ويعطوه ما يشاء من زائل النعم الدنيوية وقال قولته المشهورة: (والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته)[٥١].

وصدق النبي **صلى الله عليه وسلم** فما لانَ ولا استكان ولا ترك شيئاً مما كانوا ينهونه عنه إلا عمله. وكذلك بقية المرسلين الذين وصفهم الله تعالى بالصمود أمام محاولات ترك دعوة التوحيد ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبا﴾ [الأحزاب:٣٩].

إن الدعوة إلى الله تعالى عمل شاق وراءه عنف وإيذاء وتعذيب وتقتيل عرفه الأنبياء والمرسلون وعرفه بعض المصلحين والحكماء، فلهذا كانت وصية لقمان لابنه ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

فالتحدي قائم بين الطرفين المرسلين والمرسل أليهم هؤلاء يرفضون الدعوة والدعاة يسعون لتبلغ الناس دعوة الله مهما كانت محاولات المنع والتعطيل فلا بد من دعوة ولابد من سماع وبعد ذلك ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]. فإذا بلغت الدعوة الناس فقد قامت الحجة عليهم، وبرئ الرسول من التقصير.

المبحث الرابع

الشاكرون

رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعله الله تعالى أُسوة وقدوة للناس كان الحامد الشاكر في كل الأحوال ومن شكره لربه الآتي:

المطلب الأول: شكر محمد صلى الله عليه وسلم:

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله **صلى الله عليه وسلم** إذا قام من الليل يتهجد يقول: (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومَنْ فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومَنْ فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، وقولك الحق ولقاؤك الحق، والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيّون حق ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت وبك آمنت، واليك أنبت، وبك خاصمت، واليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت)[٥٢].

وروى صاحب الرحيق المختوم: لما كان يوم أحد، وانكفأ المشركون قال رسول الله **صلى الله عليه وسلم:** استووا حتى أُثني على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفاً فقال: (اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضل لمن هديت ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مُبعد لما قربت. اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق)[٥٣].

وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع الطعام من بين يديه يقول: (الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غير مكفي ولا مودع، ولا مستغني عنه ربنا عز وجل)[٥٤].

وكان يقول إذا أكل: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين).

ويقول: (الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجاً)[٥٥].

وكان يقول **صلى الله عليه وسلم**إذا خرج من الخلاء: (الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني)[٥٦].

ومن الشاكرين من الأنبياء كما ذكرهم القرآن:

المطلب الثاني: شكر الأنبياء

نوح عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ [الإسراء:٣]، روى صاحب الدر المنثور بسنده عن النبي **صلى الله عليه وسلم** (كان نوح عليه السلام لا يحمل شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا قال: بسم الله الحمد لله)[٥٧]

إبراهيم عليه السلام:

قال تعالى عنه: ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء﴾ [إبراهيم:٣٩]، وقال تعالى عنه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٠-١٢٣].

يوسف عليه السلام:

قال تعالى عنه: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{٣٧} وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{٣٨}﴾ [يوسف:٣٧-٣٨].

داود وسليمان عليهما السلام:

قال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل:١٥-١٦].

موسى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٤]. صلى الله عليهم أجمعين

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الهادي إلى الصراط المستقيم، الكامل الصفات. وبعد:

ففي ختام جولتنا مع نعم الله تعالى المبثوثة في الكون، رحمة للعباد نذكر أن بعضاً من الناس إزاء مسلكهم مع هذه النعم، بتبديلها كفراً يحلون الأمة كلها دار البوار، فإن سكت الناس عنهم ولم ينهوهم، فقد شاركوهم التخريب، وعجلوا بعقاب الله، فإن ثمود، انبعث أشقاها وخرب وسكت الناس فعمهم العذاب.

والناهون عن الفساد في الأرض والساعون بين الناس بالهدى والخير هم بناة الأمة، والأمناء عليها والعاملون على رفعتها وبقائها وهم أول الناجين أن حل العذاب والعقاب، والآمنون يوم الفزع الأكبر، فقد قدموا المعذرة بما قالوا، وعملوا بما علموا، فسلموا وأمنوا.

وفي الناس غفلة، وفي الذكرى انتباه، والله يعلم ذلك فقال لنبيه **صلى الله عليه وسلم:** ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وأنا بهذا أُذكِّر... آملاً أن يُنتفع بهذا القول

والله ولي التوفيق

قائمة المصادر

- الأعلام: للزركلي، طبعة دار الملايين، بيروت، ١٩٩٤م.
- تفسير البغوي: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت٥١٦هـ) دار طيبة، ١٤٢٠هـ.
- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (ت٧٧٤هـ) دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨م.
- تفسير النسفي لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي دار احياء الكتب العربية الحلبي .
- التعريفات لعلي بن محمد بن علي الجرجاني (ت٨١٦هـ) دار الفكر، بيروت، ١٩٨٩م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور تأليف جلال الدين السيوطي طبع دار الفكر الطبعة الأولى ١٩٨٣م .
- الرحيق المختوم: للمباركفوري، مطبعة مكة المكرمة، ١٩٨٣م.
- زوائد المسند: لعبد الله أحمد بن حنبل، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.
- السيرة لابن هشام: محمد بن إسحاق، مطبعة الحلبي، مصر، ١٩٩٧م.
- سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد بن ماجه القزويني، دار الفكر، ١٩٩٨م.
- سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث السجستاني، مطبعة الحلبي مصر، ١٩٩٢م.
- سنن البيهقي: لأحمد بن الحسين البيهقي، مطبعة الحلبي، مصر، ١٩٩٨م.
- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى بن سورة، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.
- صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري، مطبعة الحلبي، مصر، ١٩٨٧م.
- صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج القشيري دار بن حيان للطباعة مصر ١٩٩٦م.
- الصحاح في اللغة: للجوهري إسماعيل بن حماد مطبعة الحلبي مصر ١٩٨٣م.
- القرطبي لابي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي دار الكتب العلمية ١٩٩٣م .
- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ١٩٨٧م.
- المحكم المحيط في اللغة: أبو الحسن علي بن إسماعيل مطبعة الحلبي ١٩٨٧م.
- مسند الأمام أحمد بن حنبل: لأحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) دار المعارف مصر ١٩٤٩م.
- مصنف عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت٢١١هـ) المكتب الإسلامي، بيروت.
- المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد الطبراني (ت٣٦٠هـ) مطبعة الزهراء بالموصل.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل لابن الجوزي مكتبة الخانجي القاهرة .

الحواشي

(١) الجوهري: إسماعيل بن حماد، تركي الأصل، صاحب كتاب الصحاح في اللغة. توفي في نيسابور ساقطاً من داره (ت ٨١٧ هـ) (أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ج ١/ ٢٥١).

(٢) الصحاح في اللغة ج ٢/ ٢١٩.

(٣) أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي الضرير ،يضرب بذكائه المثل، صاحب كتاب (المحكم المحيط الأعظم) في اللغة، إمام في العربية واللغة وله حظ في الشعر وتصرف (ت ٤٥٨ هـ).

(٤) المحكم المحيط الأعظم ج ١/ ٢٦.

(٥) علي بن محمد الحسيني،متكلم بارز ومتصوف مشهور ولد في جرجان (٧٤٠هـ) وتوفي في شيراز (٨١٦هـ) تلقى العلوم العقلية على الفخر الرازي، كان ضالعًا في المنطق.

(٦) التعريفات للجرجاني: ٢٤٢.

(٧) تفسير البغوي: ج١/ص (٥).

(٨) زوائد المسند ج ٢٧٨/٤.

(٩) زوائد المسند ج ٢٧٨/٤.

(١٠) مسلم ج ٢٢٧٨/١٧٨٢/٤.

(١١) مسلم ج ٤/ ١٨٧٢/ ٢٢٧٦.

(١٢) صحيح البخاري ج١/ ٣٢٨/١٢٨.

(١٣) مسند الأمام أحمد ج٢٥/ ١٣٠ /١٢٠٨٤.

(١٤) صحيح البخاري ج٣/١٠٥١/ ٢٧٠٩.

(١٥) صحيح مسلم ج١٩/٢٢١٥/٤.

(١٦) البخاري ج٦٢٠٥/٢٤٠٤/٥.

(١٧) البخاري ج٦٩٨٤/٢٦٩٩/٦.

(١٨) البخاري ج٣/ ٣٦٨٢/١٤١٥.

(١٩) اللؤلؤ والمرجان ج١/ ٧٦٥ / ٣٦٨٢.

(٢٠) البخاري ج١ / ٣٨٦ / ١٠٩٨.

(٢١) البخاري ج ٦ / ٢٥٦٣/ ٦٥٨٤.

(٢٢) اللؤلؤ والمرجان ج٧٧٨/١.

(٢٣) النسائي ج٦ / ٢٢٣.

(٢٤) البيهقي ج١/٦.

(٢٥) البيهقي ج١٤/ ٩١ / ٦٣٠٢.

(٢٦) الرحيق المختوم:

(٢٧) البخاري ج ٦ / ٢٤٨٦ / ٦٣٨٩.

(٢٨) أنظر ابن كثير ج / ٦٦٣.

(٢٩) البيهقي ج ٧/ ٣٤١/ ٣١٨٩.

(٣٠) المعجم الكبير ج٥ / ١٠١/ ٤٧٢١.

(٣١) البخاري ج٣ / ١٢٧٥ / ٣٢٧٤.

(٣٢) أنظر ابن كثير ج ١ / ٨.

(٣٣) البغوي ج١/٣٦٦

(٣٤) المعجم الكبير ج ٥ / ١٠١ / ٤٧٢١.

(٣٥) صحيح البخاري ج / ٢٤٨٦/ ٦٣٨٩.

(٣٦) الرحيق المختوم ص (٤٠٢).

(٣٧) كتاب مناقب الامام أحمد بن حنبل لابن الجوزي ص ٥٥

(٣٨) سنن البيهقي ج ٢/ ٣٦٩ / ٣٧٤٧.

(٣٩) الرحيق المختوم ص ٣٧٣.

(٤٠)انظر ابن كثير ج ٤ / ٥٦٢.

(٤١) أنظر ابن كثير ج٤ / ٥٦٣.

(٤٢) أنظر ابن كثير ج ٤٦٣/٦.

(٤٣) المحلى لابن حزم ج٣ /٢٦٠.

(٤٤) المحلى لابن حزم ج٣ /٢٦٠.

(٤٥) البخاري ج ٥ / ٢٢٩٠ / ٥٨٤٧.

٤٦ أنظر القرطبي ج٢٦٨/١٠

(٤٧) المعجم الكبير ج٧٨٧٣/٢١٨/٨.

(٤٨) أنظر النسفي ج٢٢٤/١

(٤٩) أنظر البغوي ج٢١٩/٢

(٥٠) أنظر القرطبي ج١٠ /٤١

(٥١) السيرة لابن هشام ج ١ /٢٦٦.

(٥٢) البخاري ج ١/ ٢٩٢/ ٢٧٨.

(٥٣) الرحيق المختوم ص / ٢٥٦.

(٥٤) البخاري ص / ٣٦٥

(٥٥) زاد المعاد ج ٢ / ٣٦٤

(٥٦) سنن ابن ماجه ج٣٠١/٢٦٩/١

(٥٧) الدر المنثور ج٦/ ٢٣٠